بقلم الاب لامنس اليسوعي

اذا عُدّت المدن ذات التاريخ المجيد والشهرة العالمية، كانت انطاكية بين الستة الاولى منها ، فاحتلّت مركزاً عالياً الى جنب اورشليم، وروما ، واثينة ، والقسطنطينية... وان تاريخها يلخص عدة قرون من تاريخ سورية العامّ ، بل من تاريخ الشرق الادنى ، اذ كانت عاصمته مدة نحو الف سنة.

مدينة عجيبة بين المدن العريقة في القدم بما ازدانت به من موقع جميل على ضفاف العاصي ، ومن مساحة تبلغ ١٠٨٠ غلوة (كانت الغلوة تعادل ١٧٨ متراً) مربعة ، ومن سكان يتراوح عددهم بين الثلاثمائة والاربعمائة الف ، ومن آثار فخمة ومن شوارع فسيحة تحيطها الاروقة وتزينها التماثيل العديدة.

ولم تحرم انطاكية التذكارات الدينية الشائقة . ففيها دعي اتباع المسيح «بالمسيحيين» لاول مرة ، وفيها اقام القديس بطرس كرسيه الاول ، وقد قرن تاريخها اسمي القديسين الرسولين بولس وبرنابا. ثم اصبحت مدينة القديسين والشهداء والبطاركة العظام ، امثال يوحنا الذهبي الفم ، ومقام آباء الكنيسة المشاهير ، ومركز المجامع والمناظرات اللاهوتية . وفي بلاد انطاكية تنسك القديس مارون ، ومن انطاكية سار المرسلون الاولون الذين نصّروا اهالي لبنان.

وكانت انطاكية ايضاً مركزاً مهماً للحركة الفنية في القديم ، حتى ان مذهبها الفنيّ أثر كل التأثير في الفنّ البيزنطي ، وبواسطته ، في الفنّ الاوربي في القرون الوسطى. فاي مدينة في العالم جمعت ما جمعته انطاكية من دواعي

الفخر واسباب العزّ والمجد ؟

* * *

على ان هذه المدينة العجيبة ، الغنية بتذكاراتها ، الفخمة بآثارها ، دخلت في حيّز النسيان منذ نحو سبعمائة سنة ، منذ جلا عنها الصليبيون ، وكانوا قد عملوا نوعاً ما على اعادة شيء من رونقها التالد . اما في عصرنا فلا تكاد ادلة السياح ، كدليل بديكر ودليل جوان ، تخصّ بها بعض الصفحات .

ولهذا اراد الليوتنان - كولونيل پول جاكو ان يثأر لانطاكية من اجحاف العصر بحقها ، ويلفت اليها نظر السياح والروّاد . وكان قد نشر ، منذ سنتين ، كتاباً في « دولة العلويين » نال رواجاً سريعاً ، فاستحق مدالية ذهبية من الجمعية الجغرافية في فرنسة ، وأعيد طبعه ثانية وقد وصفناه بما يستأهله ، حال ظهوره لاول مرة[1] . فاستأنس المؤلف بهذا النجاح ، وتابع خطّته الحميدة ، فنشر مؤخّراً كتاباً جديداً في انطاكيـة ومركزها في السياحة[2] ، ظهر في ثلاثـة مجلدات متوسطة الحجم ، يزينها اكثر من ١٠٠ صورة مطبوعـة على حدة ، وعدد كبير من الرسوم ، وخطط المدن والآثار ، والخرائط المفصلة مع خريطة كبيرة تاريخية أثرية مثلثة الالوان تشمل سورية الشماليـة كلها (مناطق حلب واسكندرونـة واللاذقية) . فيزيـد كل هذا قيمة الكتاب زيادة مهمة ، ويدلّ على ما امتازت به المطبعة الكاثوليكية ، في بيروت ، من الدقة الفنية والاتقان المستوفي جميع شروط الكمال .

غاية الكاتب ان يضع اولاً دليلاً لمريدي السياحة ، وهو ما يشير اليـه عنوان الكتاب . ولذا دقق في وصف الطرق ، وفي تعيـين المسافات بالمقياس المتري ، وفي الاشارة الى كل ما يراه المسافر في طريقه . حتى ان المطالع يشعر بان المؤلف جال بنفسه في تلك الانحاء ، وتفقد مختلف جهاتها قبل ان وصفها وصف

---

(١) المشرق (٢٧[١٩٢٩]٦٦٢)

(٢) Lieutenant-Colonel Paul Jacquot, *Antioche centre de tourisme. 3 vol. in-12, 640 pp — Imprimerie Catholique, Beyrouth - Mai 1931.*

وعنه اخذنا صور هذا المقال .

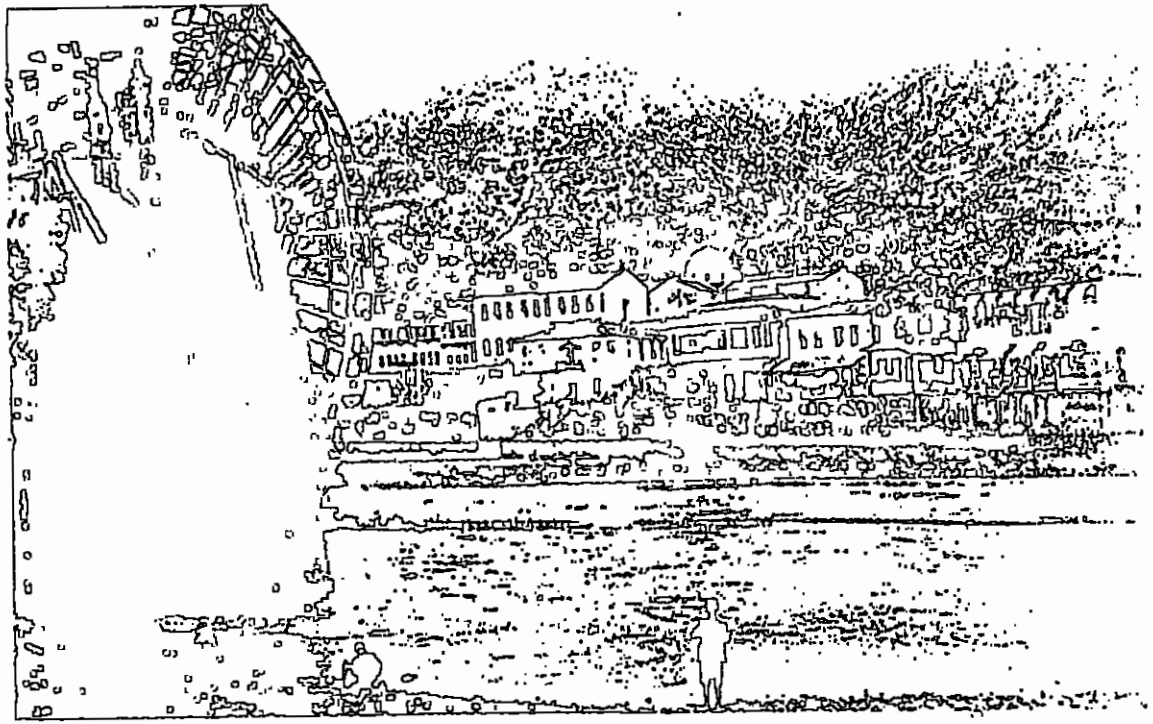

انطاكية : دولاب ناعورة على العاصي

الحاكية : قناطر مراجان

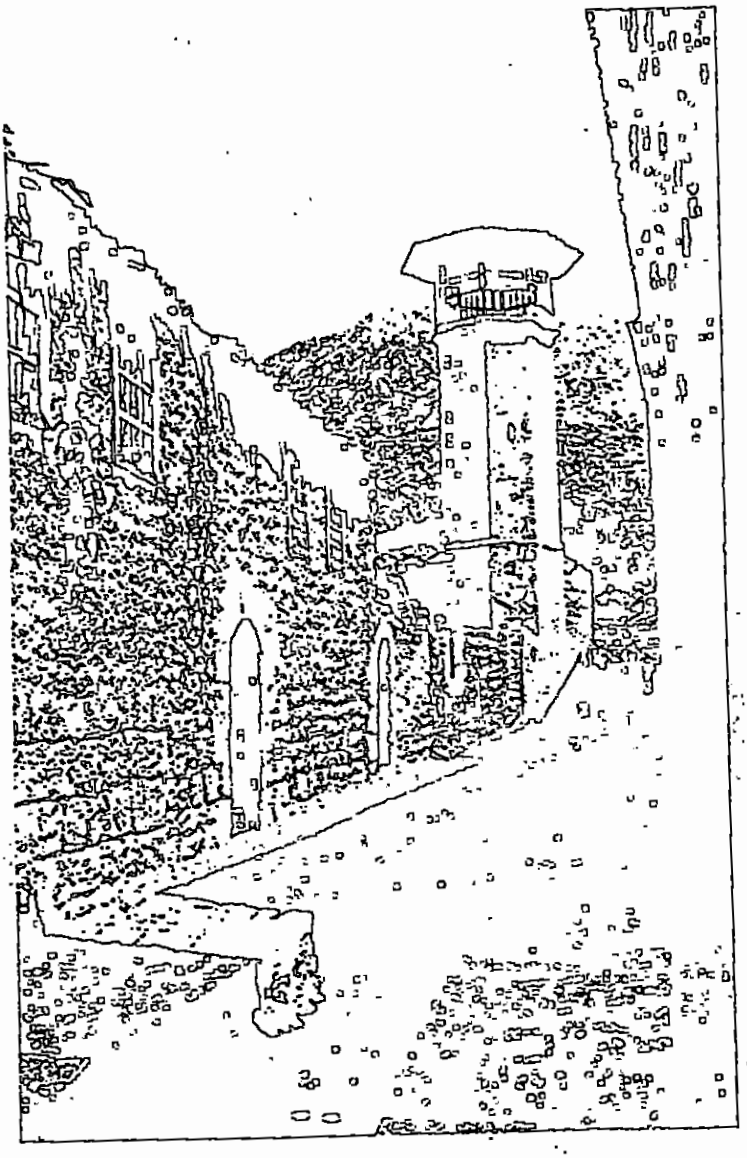

انطاكية : شارع النقيب

انطاكية : ابواب الحديد

رسّام ومخطط خبير. ولم يتراجع امام ذكر كل ما ينفع السائح الغريب ، فالقى اليه بعدة نصائح يقوم بها في معاملاته مع السكان فيجتنب الخلاف وسوء التفاهم.

على ان الكاتب لم يكتفِ بوضع دليل للسياح خاصة ، بل فكر بجميع من يقرأون كتابه ، غير السياح ، من هواة التاريخ والجغرافية والاثريات وعلم السُلالات البشرية. ولا يخفى ان في تلك الناحية ، ناحية انطاكية ، على حدود سورية وبلاد الاناضول ، مزيجاً عجيباً غريباً من السلالات والشعوب ، فهناك السوريون والعرب والاتراك والارمن والتركمان والأكراد والعلويون وغيرهم . . . يقابل هذا المزيج مزيج آخر من الشيع والبدع لا يقل غرابة عن الاول، نكتفي منها بذكر النصيريين ، واليزيديين ، واتباع الشيعة علي - الهي وما شاكل . ومن جبال انطاكية الشمالية ، خرج الجراجمة او المرَدة الذين رافق اسمهم منشأ الشعب الماروني. اما اصل هؤلاء المرَدة فلا يزال سرًّا من اسرار علم السلالات البشرية ، رغم ما أُهرق من الحبر وسُوّد من الورق حول الموضوع. وحتى الآن لا نعلم هل كانوا يمتون بصلة الى الاكراد ، سكان تلك الجهات في يومنا الحاضر ؟ بل اننا لا نعلم هل كانوا مسيحيين ؟ ومن اية شيعة كانوا ؟ كلها اسئلة لا يمكن الجواب عنها بسهولة.

ولما كانت تلك الجهة تؤلف الحد الفاصل بين سورية وجاراتها من المناطق ، فقد اصبحت نقطة خلاف دائم بين الشعوب المتنابة منذ البابليين ، فجرت فيها المعارك الحاسمة التي كثيرًا ما كانت تقوّض عروشاً وترفع غيرها ، وتلاشي دولًا وتُنشئ اخرى . ولا تزال نرى في ايامنا الآثار المهمة للقلاع والحصون التي انشأها الصليبيون والمماليك [1] كحصون بغراس ، وقُصير ، وداربساك ، التي تمكن المقابلة بينها وبين حصون بلاد العلويين. هذا وان صفة المؤلف العسكرية دفعته الى التوقف عند هذه الآثار ، فوصفها في صفحات تظهر من اوفر اقسام الكتاب جمالًا وحياةً ، زينها بعدة رسوم واضحة . نذكر من ذلك الفصل الذي يبحث فيه المؤلف في كيف نظّم الصليبيون طرق الدفاع عن امارتهم في

١) ورد خطأ في الصفحة ٢١٠ ان ابن حوقل كان يعيش في عهد المماليك . والصواب انه تقدّمهم بما لا يقلّ عن مائتي سنة.

انطاكية (ص٢٨٨وما تبعها) . اما قبل الصليبيين ، فكان الرومان والبيزنطيون قد اقاموا المنشآت العظيمة للدفاع عن انطاكية . فكانت الاسوار تتسلق الجبل المطلّ على المدينة من جهة الجنوب ، وترتفع الى علوّ ١٨ مترًا بسماكة ٣ امتار ، وكان فيها ٢٤,٠٠٠ شرفة . اما دائرة الاسوار فكانت تبلغ ١٥ كيلومترًا . ولم يبقَ منها اليوم الّا بعض الخرائب المبعثرة . ولا عجب فان الاهلين استعملوها استعمالهم المقالع ، فاستأوا حجارتها ليبنوا منازلهم . على ان اثر السور لا يزال ظاهرًا ، ويمكن السائح ان يتبعه على طوله ، دون انقطاع ، دائرًا حول المدينة ، كما فعلنا سنة ١٩٠٣ . وفي مكان منه ينحدر الحائط انحدارًا هائلًا على طول الجبل . فيدهش الناظر ويقف سائلًا : بايّ اعجوبة من اعاجيب فنّ التوازن ، تمكّن المهندسون من اقامة هذا البناء الضخم ، ومن حفظه مدّة قرون عديدة ، على ذاك الشفير الهاري في منطقة كثيرًا ما تهزّها الزلازل ؟ . . .

***

من ذكر انطاكية ذكر دفنة التي يسمّيها العرب تارةً باسم غريب هو « بيت المال » ، وطورًا باسم أغرب هو « بيت الماء » . تبعد انطاكية عن دفنة نحو الساعتين ، ولهذا كان اليونان والرومان يسمّونها : « انطاكية قرب دفنة » ليميزوها عن غيرها من المدن التي كانت تُسمّى « انطاكية » وهي عديدة نعرف منها لا اقل من اثنتي عشرة . وكانت دفنة اهمّ معبد لوثني انطاكية ، تقوم فيه الهياكل البديعة على اسم جوبيتر وغيره من الهتهم . وكانوا يقصدونه جماهير قصدهم اماكن اللهو والمسرّات ، فيجتمعون هناك في مسارح الطبيعة الفتّانة ، وسط غابات الدفلى ، الى جانب الشلالات المتراخمة القاذفة بالمياه المزبدة ، متهافتين على ما لا يليق ذكره من اساليب الملاهي المخجلة التي لم تكن الديانة الوثنية لتحرّمها . ولم يبقَ اليوم من كل هذا الا المشهد الطبيعي : غابات الدفلى ، والشلالات المزبدة التي تنحدر مياهها في الوادي فتصبّ في العاصي . اما الهياكل ، والميدان ، والقناطر ، والتماثيل التي كانت تزين الغابات ، فاضمحلّت كلها . وكذلك اضمحلّت تلك الكاهنة المتنبئة التي كانت تقود الى دفنة الالوف من الحجّاج السذّج البسطاء .

وقد استفادت المدينة من تلك المياه ، فاقتادت امّ الشلّالات من معينه ، واستعملته لتوزيع ماء الشرب على السكّان ، وتوليد القوّة المحركة والنور الكهربائي .

في انطاكية جامع مشهور يزعمون ان فيه قبر حبيب النجّار [1] . اما حبيب هذا فيزعم مؤلّفو المسلمين انه كان تلميذاً لحواريّي عيسى ، سمع مواعظهم فدان بدينهم ، وقد يكون هو ذاك الرجل المجهول الذي يذكره القرآن (٣٦ : ١٢) فيقول : « وجاء من اقصى المدينة رجلٌ يسعى » . ويرى المطالع قصته في كتب تفسير القرآن ، كتفسير الطبري وتفسير البيضاوي . وقد سمّي باسمه الجبل المُطلّ على انطاكية فدعي جبل حبيب النجار ، وهو ما كان يدعوه الاقدمون « سيلپيوس » .

***

على ٢٥ كيلومترًا من انطاكية ، تقع سلوقية ، ميناء انطاكية منذ القدم ، وقد قامت اليوم في مكانها تقريباً السويدية ، وهي قرية كبيرة سكانها من الطوبين ، مع عدد مهمّ من الروم الارثوذكس . وهي تستحقّ الزيارة لما خُصّت به من موقع جميل قرب مصبّ العاصي ، ومن مياه غزيرة تجعل الخصب في تربتها ، والخضرة في جميع جهاتها ، حتى ان الناظر الى بيوتها ليراها غارقة وسط الشجر والنبات .

أسست سلوقية في العصر الذي أسست فيه انطاكية . ولكن لم يبقَ منها الا ما يراه المسافر من آثار الميناء الماثلة ببعض البلاط في الارصفة حيث كانت ترابط السفن ، وحيث ركب البحر رسل السيد المسيح . وفي وسط حقل من التوت ، يرى السائح تمثالاً من الرخام الابيض اكبر من القياس الطبيعي . الا انه مشوّه بتحطيم اعضائه لسوء الحظّ ، وقد زاد تشويهه اليوم على ما كان عليه اذ زرناه سنة ١٩٠٣ . وهو يمثّل ، بلحيته ، وقدره ، اله النهر العاصي . وهكذا كان الاقدمون يمثّلون آلهة الانهر .

---

١) ليس معنى اسمه بالفرنسوية : «l'ami du charpentier» كما ترجمه المؤلف (ص ٢٩٢) ، بل « Habib le charpentier »

ومع كون ذاك التمثال ليس من آيات الفن، فهو لا يخلو من دقة صنع تُظهر عليه الطمأنينة مقترنة بالقوة والعزم.

على ان اهمّ اثر في سلوقية، في نظري، هو ما يدعونه «بالدهليز». و«الدهليز» قناة محفورة في الصخر ذات تاريخ عجيب لا بأس بذكره: يُطلّ على سلوقية من الشمال ومن الشرق جبل موسى. فكان انه بعد امطار الشتاء المتواصلة، يتألف ساقية جارفة تنحدر من جهات ذاك الجبل، وتهبط على المدينة مجتاحةً ما تصادفه، حاملةً ما تمرّ به الى الميناء، ملقيةً كل ذلك في البحر. فكانت خطرًا دائمًا لا على المدينة فحسب بل على المرفأ ايضًا، لانها كانت تعمل على طمره بما تلقي في البحر من الركام. فرأى الرومان ان يحوّلوا وجهة ذاك السيل بان يحفروا له في الصخور مجرًى جديدًا. وكان ذاك العمل الذي قد يُعدّ بحق اعظم أثر جبّاري تجرّأ على القيام به مهندسو الاقدمين. فبدأوا الشغل في اول الوادي بان شيّدوا سدًّا مهما كان من شأنه ان يكسر من حدّة ذاك السيل. ثم شاؤوا تصريف تلك المياه، فنقبوا في الصخور العالية المرتفعة من ٦٠ الى ١٢٠ مترًا نفقًا بلغ طوله ١٣٨٠ مترًا، وعرضه ٦ امتار. ويرى المنقّب حتى اليوم في عدة اماكن من جهات النفق، محفورةً في الصخر، اسماء الفرق الرومانية التي اشتغلت في ذاك العمل الجبّاري، مع ذكر اسماء قوّادها.

فكان من نتيجة هذا النفق العجيب ان بُعد كل خطر عن المرفأ وعن المدينة. فروّض ذاك السيل الجارف، وحوّلته حكمة الرومانيين الجريئة الى مجرى نافع يوزّع مياه الشرب على اهل سلوقية. وفي الشتاء كانت المياه، على كثرتها وازدحامها، في النفق، تصبّ في البحر فتسهّل الصلة بين المرفأ الرسمي والرصيف المتقدّم. ولا يزال الاعجاب بهذا الاثر الهندسي عظيماً حتى في عصرنا، على رغم تقدّم العلوم الحيلية من نظرية وعملية. ومن عوامل هذا الاعجاب دقة الحفر في صخر كلسي صلب على طول ما يقرب من كيلومتر ونصف، وانتظام جهات النفق العمودية الملساء دون ما نواتئ ولا احافير، كانها صُقلت بفارة النجار. فاذا زار السائح هذا النفق، وتحقق ما قام به مهندسو القدماء في سبيل الخير العام، شعر بمدنية راقية مهتمة بالترتيب والدقة حتى في

اصعب مشاريعها ؛ وراح ، عن غير قصد منه ، يقابل بين هذا العمل الفني التام المادئ ، وما يقوم به مهندسونا الحاليون ، في انفاق السكك الحديدية مثلاً ، من اعمال الهدم والتدمير بواسطة ما لديهم من المدمرات والمتفجرات .

***

طال كلامنا على ذاك « الدهليز » ، لانه يمثل بكل وضوح مدنية الرومانيين القديمة ؛ بل قد يمثلها باوفر وضوح مما تمثلها به هياكل بعلبك ، واعمدة تدمر . ولا ننسَ ان الرومانيين كانوا اوّل من اختطّ الطرقات العمومية في سورية ، وان كثيرًا من الجسور التي بنوها لا تزال قائمة ، بينا لا يمكننا تعداد الجسور التي بناها مهندسونا في النصف الاخير من القرن الماضي والتي تفككت قناطرها وسقطت بعد حياة قصيرة . . .

يُطل على السويدية ، من جهة الجنوب ، الجبل الاقرع الذي دعاه الاقدمون باسم « كاسيوس » ، وهو ذو قمة دقيقة ترتفع الى علوّ ١٨٠٠ متر وليس من الضروري ان نسير بالمطالع الى ذاك المرتفع ، بل نفضّل ان نحيله الى كتاب الليوتنان الكولونيل جاكو ، ومن الصعب ان يجد دليلاً اوفر معلومات ، واحسن عشرة .

يسأل المؤلف نفسه في آخر كتابه (ص ٦٠٥) : « هل يمكننا ان نسرّ ، في وقتٍ معاً الشعراء ، والمؤرخين ، والجغرافيين ، والاقتصاديين ، والحربيين ؟ » اما نحن فنجهل هل نجح في هذه الغاية المتعدّدة الدقيقة . ولكننا نرى انه جرّب النجاح ، فنهنئه على هذه الجرأة . ويمكننا التأكيد ان المؤلف يسرّ من شاء الفائدة واللذة من المطالعين ، ومن شاء ان يسير وراءه دليل امين على شرط ان يحيي امامه الماضي المجيد . من هذه الجهة ، نرى المؤلف نجح كل النجاح ، فاعاد الى الحياة انطاكية العصور القديمة والوسطى ، واثار في صدر المطالع رغبة شديدة تدفعه الى قضاء مدة الحرّ بين غابات الامانوس والجبل الاقرع .